14 me Année No. 704

Lundi — 30 — 12 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧٠٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ٦ صفر سنة ١٣٦٦ — ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

من استرعى الذئب ظلم

للأستاذ محمود محمد شاكر

فى سنة ١٩٢٧ عرفت رجلاً إنجليزياً ، فنشأت بينى وبينه مودّة ، وكان رجلاً حريصاً على أن يعرف أشياء كثيرة على وجهها الصحيح ، وكان صادق اللسان فيما يبدو لى منه ، وإن كنت قَلِقَ الشكّ فى صدق اللسان الإنجليزى ! وكانَ لطيف المشرطق الهيئة ، فيه دُعابة رقيقة لا تبلُغُ العُنفَ ولا يتجاوز بها حدّها . وجئينا معاً سنة كاملة ؛ فكان كأكثر الناس أدباً ، وأزكنهم عقلاً وأبعدهم عن اللاحاة والمغاضبة وسوء العشرة . وكان إذا تقصّى منّى أمراً أخلصتُه القول ، فقد ظننتُ أنى جرّبتُه وعرفته وتفذت فى طوايا ضميره . وكان هو يحدّثنى فلا أشكُّ أبداً أنه كسائر أهل جلدته ، بل كان خَلْقاً غير الخلق منهم ، فهو يقول ويبنى ما يقول ، وليس كأمثالهم يتسلّل من إهاب ليدخلَ فى إهاب . ولم أزل أطمئنّ إليه وإلى حديثه وإلى بثّه ما فى نفسى ونفس بلادى من شعور ، فكان لا يتردّدُ فى إعطاء الحق لمن له الحقُّ ، ولا يرضى أن يكونَ ظالماً ولا متعنّتاً ولا مدافعاً بالعصبية أو الكبرياء أو المراءاة .

وفى سنة ١٩٢٨ جاءت امرأته من بلادها ودعانى مرّات فما لبثتُ أن رأيتُ هذا الرقيق الوديع للنصف ينقلبُ خشناً جريئاً على الباطل جائراً فى الحكومة ، متمنّتاً فيما كان بالأمس يعطى النَّصفةَ فيه ، وإذا هو شديد اللَّدَد تيّاه الخصومة ، وإذا هو ينسلخُ من إهاب ليدخلَ فى إهاب كفعل سائر قومه ، فكانَ ذلكَ آخر عهدى به ، وكان من عاقبته أنى كرهتُ هذه الإنجليزية العجيبة التى يقال فيها ما قال الشاعر : « كالسُّرّ يكمُنُ حيناً ثم ينتشرُ » . فإنّ مجىء امرأته أعداهُ كما يُعدى الجَرَب ، فثار ما كمن فيه منه ثم استشرى ، فإذا هو واقِدُ قومٍ هُم ما هُمْ .

وفى هذه السنة التى انتفض عليه فيها مُرُّ قومه ، جلسنا يوماً نتحدّث فجرى الحديث إلى ذكر السودان ، فقال لى إن قضية مصر فى مسألة السودان ليست إلا دعْوَى لا خير فيها ، فإن هذا النّيل الذى تزعمون أنه يربط بين مصر والسودان رباطاً لا انفصام له لا ينفعكم فى إقرار الحجة لدعواكم أن مصر والسودان أمّة واحدة أو ينبغى أن تكون أمة واحدة . وقال : أرأيت إلى نهر الدّانوب ، كيف يجوزُ فى العقول أن يَدّعى مُدّعٍ ممن يعيش على مدّه أنه يُوجب توحيد الأمم التى عليه لتكون أمة واحدة ؟ أو ليسَ إذا قام شعبٌ من شعوب الدانوب فادّعى بمثل ما تدّعون ، فإن الواقع كله يبطل حُجّته ، والعقل يوجب أنّ يشكّ المرء فى صحة إدراكه هذا الشعب ! فهذه هذه ، فليس ينفعُ قضيّة مصر أن تدّعى أن النيلَ يبنكا هو الرباط الذى

يوجب أن تصيرَ مصر والسودان أمة واحدةً . والعجبُ العجاب عندى أنّ حديث السودان كان قد جرى بيننا قبل أن يمسَّه عُرُّ قومه ، فلم يقتصر يومئذ على أن يسكت ؛ بل كان قد وافقنى على ما ذكرتُ لهُ من حجة مصر فى قضية السودان ، فإذا هو قد نسى كُلَّ هذا بعد أن ارتدَّ إلى سِنْخه وطبيعته ... وهكذا الإنجليز .

ومضى الزَّمنُ ، وإذا بنا نسمع إحدى البيِّغاوات التى سُلِبَت العقل وكُسِيَت الريش الجميل ، تردِّد هذا القول المدخول الفاسدَ من جميع نواحيه . ولو كان قائله إنجليزياً لهانَ الأمرُ ، وهو هيّن على كل حالٍ ، ولكنه مع أشدّ الأسف سُودانىٌّ بالمولد والإهاب ، أما قلبُه فقد بيع بالمزادِ فوقع فى قبضة الرَّجُل الذى رفعته إنجلترا بين عشية وضحاها من وهدة البؤس والحرمانِ ، وكان فيهما وجلاً فاضلاً ، إلى ذروة الغِنَى والجاه ، فأصبح بعدُهما جانحاً إلى النقصان ساعة بعد ساعة .

زعمت البيِّغاء أنّ ليس فى الدنيا شىء يقال له وحدة وادى النيل ، كما أنه ليس فى الدنيا شىء يقال له وحدة نهر الدانوب ، وأنّ الذى يُبْطل هذه يُبْطل تلك فى مقام الاحتجاج ، ويخرجُ من هذا إلى أن السُّودان ينبغى أن يكون أمّة وَحْدَه ، وأن مِصْر أو أثرياء مصر ! « ينصبون نخاخاً تخفى أغراضهم الحقيقية ببراعة بالغة خلف الثوب اللامع من الدين واللغة والتاريخ ، وهو الثوب الذى اصطنعوه بأيديهم » . هكذا قالت البيِّغاء التى يزعمون أنها رئيس تحرير جريدة النيل وعضو فى وفد حزب الأمة فى لندن لهذا التاريخ !

فهذه البيِّغاء تجمع إلى نقيصة الترديد والتقليد نقائصَ كل واحدة منها شرٌّ من الأخرى هى الجَهْلَ بمعنى ما يقول ، والكذب على أهل السُّودان ، والجرأةَ فى التهجُّم على الناسِ بما ليس يعلم ، والتدليسَ فى التاريخ ، والعبثَ بمصير أمّته المصرية السودانية ، وشرُّهُنّ جميعاً ما يلوحُ فى خَبِىء كلامِه مِنَ العَداوة البغيضة التى يؤرِّثها هو والمستأجرون من أمثاله بين مصر والسودان .

وقِصّةُ هذا الدانوب الذى يحتجُّ به ذلك الإنجليزى ثم احتجَّت به البيغاء الملقَّنة ، قصّةٌ فاسدة المبنى والمعنى ، والإغماضُ فى الاحتجاج بها دالٌّ على ضيقِ التصوّر وقلةِ العَقْل وجُثُومِ الجَهْل فى جمجمة قائلها . فهذا النهر ينحدر من منابعه فى بادن مخترقاً ألمانيا ثم النمسا ثم هنغاريا ثم يوغوسلافيا ثم بلغاريا ثم رومانيا حيث ينتهى إلى مصبّه فى البحرِ الأسودِ ، فهو مشترك بين ست دُوَلٍ كُلّ واحدة منها لها خصائصها ، حتى يبلُغ التباين بينها مبلغاً ليس بعده شىء ، فى اللُّغة والعادات والآداب والتاريخ وأسباب الحياة كُلها تقريباً . هذه واحدة .

أما الثانية فهذا النهر واقعٌ فى قلب أوربة ، وهذه الدول كلها قائمةٌ على حِقافَيه متاخمة لدُوَلٍ أخرى تُحيط بها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، فهو ليس نهراً فى صحراء جرداء كما ترى فى نهر النيل الذى يحده من الشرق صحراء ، ومن الغرب صحراء ، ومن الشمال بَحْر ينتهى إليه مصبه ، وفيه دلتا مصر .

وأما الثالثة ، فهو أنه ليس نهراً تقوم على جوانبه الزراعة فى خطٍّ ضيّقٍ فى بلدٍ واحدٍ كالذى تراهُ فى نيل مصر والسودان ، بل لعلّ أكبر فوائده هى النَّقْل لا الزراعة وحدَها .

وأما الرابعة فهى أن هذا النَّهر يمرُّ فى دُوَلٍ ستٍّ قوامُ حياتها الصناعة لا الزراعة وحدها . أما نهر النيل فالزراعة هى قوامُ حياة أهله وسبَب أرزاقهم ، والذى فيه من مادّة الخِصْب يوجب أن يكون نهراً للزراعة واستصلاح الأرضين البور التى تحفُّ به من شرق وغرب .

وأما الخامسةُ فهى أن إقامة السُّدود على نهر الدانوب لا يمكنُ أن يرادَ بها إلحاق ضَرَرٍ بالأرضين التى تقع على مُنحَدره ، فإذا أرادَ ذلك مُرِيدٌ وعزمَ على أن يضُرّ بلداً بمنع ماء الدانوب عنه فقد وقعت الواقعة بين ستّ دُوَلٍ كُلها متأهِّب للحرب فى سبيل ردّ هذا البَغْى . فهو كما ترى أمرٌ مستحيل بطبيعته .

وهناك قول كثير ولكنْ حَسْبُنا هذا لمن يريد أن يَفْهم فهماً ، لا أن يردّد الأقوال ترديد البيِّغاوات التى تُباعُ وتُشترى للأغراض الخبيثة التى تريدها إنجلترا بهذه البلاد المسكينة . فهذه المقابلة السخيفة بين مسألة الدانوب ومسألة النيل لا تدلّ على شىء إلا على جَهْل الناطق المردّدها ، ولا

تقوم حُجّةٌ إلا على خُبْث النيّات التي أخذت تندسُّ لتفرّق أوصال هذا الوادي وتزايل بين روابطه التي لن تنفصم، بإذن الله.

ونحن نحمد الله على أن الأحرارَ أهلَ السودان ليس لهم برأي أن يقطعُوا أرحامَهم، ويُخربوا بُيوتهم بأيديهم، ويمزّقوا هذه الوشائج الممتدّة من أقصى عُهُودِ التاريخ إلى يومنا هذا. فنحن نسوق الحديث إلى هذه الببغاوات التي تنتسب إلى الشعب الأبيّ الحرّ لعلها تفيء إلى الحقّ، وإلى الذين يهادنون في الحق الأبلج مخافة أن يقالَ إن مصر تريد أن تبسط سلطانها على السُّودان في زمن تنادى فيه الأمم بالحق الأبلج أيضاً في تقرير المصير. ولولا أن هذا كله تدليسٌ خبيثٌ يرادُ أنْ تروّعَ به القلوبُ، ثم يتغلغلَ خُنْيةً إلى معانٍ بعيدة يُراد بها قتل السودانِ ومصر جميعاً، لكان الردّ عليه هو إهمالَه وازدراؤه.

إن هذا النيل الجاري بين الصحراء الشرقية والصحراء الغربية من أقصى الجنوب إلى أدنى الشمالِ يُوجِب أن يكون أمةً واحدةً، فليس مثله كمثل الدانوب. فإنه إذا قُدّر للسودان أن يكونَ وحده مستقلاً، وهذا أبعد البعيد، أو تحت سلطان انجلترا، وهو الشيء الحادث والذي يُرادُ الإيغالُ في إقراره بفصله فصلاً تاماً عن مصر، فإن الخطرَ الدائم والداهية المصبوبة تكون على مصر جائحة حاضرةً في كل أوانٍ، فإن أسهل السُّهل أن تُضارّنا إنجلترا في ماء النيل، وأن تمنع عنا رِفْده متى شاءت وتتخذه سلاحاً مخوفاً مفزعاً وحشياً للتهديد والإرهابِ بقطع مادّة الحياة في مصر بل في الشرق الأوسط كله، فإن قحط مصر هو قحط الشرق الأوسط، بل قحط جُزْء عظيم من حوض البحر الأبيض المتوسط. فإذا كان ذلك فبمن نستنجد؟ ومن أين نؤمّل النُّصرة؟ برمال الصحراء الشرقية وسواقي الصحراء الغربية!! إنه إذا كان مثل ذلك في أي مكانٍ من الدانوب لهبَّتْ أممٌ بأسرها — أمم صناعية — تدفع البَغْي دفعاً وادعاً رادّ اللحق مانعاً لاستمرار هذا البغي. أما مصر، فماذا تصنعُ أيها المأجورون للدسيسة الإنجليزية! أتدافع برجالٍ هدّهم الجوعُ والظمأ والوباء؟ تعست الخافقة!

ولو كانت إنجلترا هي الأمة التي تسكن هذا الجزء من وادي النيل المسمى باسم مصر، لما تردّدت ساعة واحدة من أجل هذا وحده أن تفتح السودان فتحاً وتنهبه انتهاباً، وتحتج لفعلاتها فيه بكل حجة، لأن النيل حياة إذا جاء بعده، وموت إذا أمسك سَيْبه. وهذه إنجلترا نفسُها ليس لها حُجة في البقاء الذي تريده في الشرق الأوسط وفي قناة السويس وفي نواح أخرى كثيرة، إلا أنها إذا خُلّيتْ جلبت على الإمبراطورية كل شرّ، وقطعت شريان الحياة الذي يمدُّها بالطعام والمال والقوة والسلطان. أفيجوز في العقل أن تحتج إنجلترا بذلك في سبيل أن تبقى عند قناة السويس وفي فلسطين، ولا نحتجُّ نحنُ بأضرارٍ محققةٍ إذا كان في السودان إنسانٌ واحدٌ في يده قدرةٌ على الإضرار بمصر إضراراً يصيب أبدان أهلها وأرواحهم، ثم أبدان ملايين أخر من أهل الأمم التي تجاورنا وتستعين بها وتستعين بنا.

ونحن لا نقول هذا ولا نسوق الحجة على هذا الوجه لندعي — كما يُراد لنا اليومَ أن ندّعي — أنّ لمصر حقاً في استعمار السودان أو احتلاله أو الوصاية عليه أو غير ذلك من الأباطيل المضللة، بل لنقول إنّ هذا وحده يوجبُ عقلاً أن يكون وادي النيل كلّه دولةً واحدة، لها حكومةٌ واحدة، وتشريع واحدٌ، ونظامٌ نيابي واحدٌ، شأنُ السودان فيها كشأن أسوان، وقنا وجرجا ومديريات مصر كلها، فإن موقع أية مديرية من هذه المديريات كلها هو من الناحية الجغرافية كموقع السودان! فلو جاز أن يُفصل السودان اليوم عن مصر بحجة، فهذه الحجة تنطبق كل الانطباق على أسوان ثم قنا ثم جرجا إلى أن تبتلع النيل كله. وأيضا فإن مكان السودان كمكانها من الناحية التاريخية والأدبية والأخلاقية والدينية. وإذن فالنيل يحدث بلساناً لا يكذبُ بأنه لا يمكن أن يتجزّأ إلا إذا جاز التجزؤ على هذه المديريات حتى تُصبح كلّ واحدة دولة قائمة برأسها. والشعب الذي يسكن أسفل الوادي (المعروف باسم مصر)، والشعب الآخر الذي يسكنُ أعلاه (المعروف باسم السودان)،

عدد «الرسالة» الممتاز

يصدر بعون الله حافلا كعادته بالشهى البطلى من ثمار الثقافة الاسلامية الصحيحة لكبار الكتاب في ٥ يناير سنة ١٩٤٧